

"يتأنقُ الكتابُ صفحةً بعد صفحة، فعلى كُلِّ منها نبضةٌ من منظرٍ، وقبضةٌ من كلماتٍ"

"الهرمل... الجمالُ ماءُ العينِ الزرقاء" لـ كامل جابر

هنري زغيب

إذا كانت العينُ الزرقاءُ عيناً نادرةً ذاتَ أزرقٍ مائيٍّ شفافٍ تتبَعُ جنوبيَّ الهرمل وتتناسبُ طائِعَةً لتذوّبَ رافدةً من روافدِ العاصي، فكتابُ كامل جابر عن الهرمل "الجمالُ ماءُ العينِ الزرقاء" ترجمةٌ نابضةٌ لهذا الجمال في هذه البقعة الجميلة من شَرْقِ لبنان.

كتابٌ موسوعيُّ الحجم، مربّعُ الشكلِ، كبيرُهُ، في 168 صفحةً أنيقةً الإخراج والطباعة والألوان، نَشَرَتْهُ مع المؤلفِ بلديةُ الهرمل، وساهمت في صدوره وزارةُ السياحة.

بين كاميرا كامل جابر ونصوصه الشاعريةِ الثاقبةِ البلوغِ إلى نبضِ الصورةِ تعليقاً عليها، يتأنقُ الكتابُ صفحةً بعد صفحة، فعلى كُلِّ منها نبضةٌ من منظرٍ، وقبضةٌ من كلماتٍ، ولِيتهادَ الجمالُ اللبنايُّ الهرمليُّ على جناحين من نبضةٍ وقبضةٍ.

ستةُ فصولٍ أحاطت بالتاريخ والمكان، بين آثارٍ تَعْتَقُ على جدرانها العُصور، وجنى أرضٍ مباركة لا يَعْتَقُ من خيراتها الجنى.

نفتح الكتاب، تبدأ الرحلة: هذه بقاعُ الهرمل ربيعاً عروسُ ربيع، وشتاءً حسناً تلتحفُ الثلج لا بَرْداً بل غَمَزَةً غوى. وهذا قاموعُ الهرمل بوصلتِ السهل، على عقاربِ حيطانه العتيقة تدورُ السنوات فتشِيخُ ولا يَشِيخُ. وهاتان صخرتا تَبُوخَذَنْصَرِ كأنهما ذراعان لِحَضْنِ التاريخ، وهذا دير مار مارون تُطَلُّ من كُواه أناشيدُ الصمت لراهبٍ يبارك تحتها العينُ الزرقاء، وهذا قصر المعلقة قلعةً مهيبَةً حجارَتُها ولو بقايا، وهذه قناة زنبوبيا تتسرّبُ بين كهوفٍ ومغاورٍ دهريةٍ يحفلُ بها صدرُ الهرمل.

نُكْمِلُ؟؟ نُكْمِلُ: ها نحن في قلبِ الهرمل بلدةً وبلديةً، نديمها ليلاً قنديلُ السهر، ونجيبها نهاراً تتأوَّبُ السهل، على أبوابها الختيارة أصواتُ قبضاتِ الأيدي، وفي زواربِها وأحيائها حكاياتٌ ماثلةٌ على الحيطان، فيها بيوتُ الطين على سطحها وسامُ البركة من رُتبةٍ مَحْدَلَةٍ، في عُرفها الكوايرُ والخوابي، حولها التَّنُورُ، بينها القُببُ، ومن إطلالاتها قصورٌ فخمةٌ أنيقةٌ لا تُخجلُ قرميذاً فَقَدَ بعضَ أسنانه، أو حَلَقَاتِ أبوابٍ ناعِسٍ عليها الصدأ، أو دَرَجاً مهجوراً نسيَ مع الوقت ميلوديا القَدَمين تَطَّانِهِ في لهفةِ الوصول.

نُكْمِلُ بعد؟؟ هيا. هذه جرودُ الهرمل تَعْتَمِرُ الأبيضَ أشهراً طويلاً فلا يلوي له شِلْحُ لَزَابَةِ عنيدة، وهذه أكواخُ الجُرْدِ وانفتاحُ الأحراج والغابات على مساحاتٍ بكارى من خير الأرض. وهوذا سهلٌ مَرْجَحِينِ ما زال يردُّ مواويل العتابا بصوتِ جُردِيٍّ من بشرِيٍّ اسمه جبران خليل جبران كان يُمضي الصيفَ مع أسرته في مرجحين قبل أن حملته أمه إلى أميركا ليحمل منها لبنانه إلى العالم.

ولأننا نكمل بعد، نصل إلى نهر العاصي، هذا العاصي على جميع الأنهار، يولدُ عندنا من روافد وبنابيع، ويعصى على الاتجاه: يتأفَعُنْ عكس السير من أعلى سهل البقاع إلى أسفل سهول حمص فيدير نواعيرها الضخمة ويكمل إلى أنطاكيا دون سائر المشرق، ليبلغ المرمى فيصُبُّ كنوزَه المائية في أزرق الأبيض المتوسط. وتنهأ الجلسة على نهر العاصي: عند العين الزرقاء، عند شلالات الدردارة، عند سد حيرة، عند شلال الشلمان، عند مُتَنَزَّهات العاصي السياحية، عند طاحونة العميريّة تفلقُ سكوتها هسهسة سمك الثرويت متداعباً في مياه العاصي. ولشفاقيّة الشعر في كاميرا كامل جابر، تخالُ مياه العاصي ستخرج من الصفحة إلى يديك.

ويكون ختامُ الرحلة مقاماتٍ ومساجدَ ومعابد، في منبسطات القاع، على أصداء "الله أكبر" من جامع الوقف وجامع البيادر، وصدى الكيريايسون من كنيسة أخوات يسوع، وضريحَي الرئيس صبري حمادة والنقيب رياض طه، لتغلق الكتاب على ريحة الأرض حوراً ودلباً ولزأباً وزيتوناً ونحلاً ومؤونة كشكٍ ولبنة وأرغفة تتور وأيدٍ طيبة لحياسة السجّاد وأقفاص الحجل ومشاعر الفحم.

كتابُ كامل جابر، بالكاميرا والنص، عن الهرمل "الجمالُ ماء العين الزرقاء" دقق نابض من قلب لبنان إلى قلب كلِّ لبنانيٍّ واعٍ فرادة لبنان الجمال على كلِّ شبرٍ من أرضه، وعند كلِّ فلذة من كلِّ غيمة في قصيدة سمائه الشاعرة.

*صحيفة "الأنوار"، إذاعة "صوت لبنان"، موقع "جماليا"
